

رواية

# قُتُوفُ الضحي

الكاتب

جمال بن عبد الله الحيان



## هُتُوفُ الضَّمِي

عاش في فلك المرض ، وعلى أمواج  
 الوهن ، وقد اخترم المرض جسده  
 الرهيل ، وطلب نور وجهه  
 الشبلي ، أنتعل أديم الأرض ،  
 وأنزوى في بيت الرهوم  
 والأهزان ، كائف البال ، سبيئ  
 الحال ، فدم عصرته طاهونة الزمان ،  
 واخضل بهاء المطر يقضقض بجانبى  
 على سكون المقرور ، ودلشة  
 المظلوم ، يجر رجليه يرپد قضاء  
 حاجته وقد كده الرهم والضير ، وقد  
 بلغ منه الشقاء مبلغا .

جمال بن عبد الله

رقم الایداع :

2020M00106

الترقیم الدولي :

9-043-39-9920-978

مراجعة وتحقیق :

الأستاذ صلاح الدین أقرقر

## إهداء

لأصدقائي الداعمين لي بكلّ قوّة ...  
 لكل من عانى ولا يزال يعاني ويل القهر والامتربة  
 ...  
 لكل من تاب من متاهات الشعوذة ....  
 لكل من تاب وأناب ...  
 لأصحاب الضمائر الحية والقلوب العطرة الحيّة.

## مقدمة

أغتنم صفاء الفكر كل يوم كي أكتب بضع أسطر مما اختلج في صدري  
وما جادت به قريحتي ، تجافت بي عن المضاجع الضلوع ، واشتد بي  
الأرق ، فلم أجد ترياقا أنجع من ورقة وقلم .

بدأت في تدوين الخواطر ..لعل الاحتفاظ بها مكتوبة نخر لا يخاف  
كساده، تحن مسامعي كل يوم لتلك المشاعر التي تنطق بما فيّ ..أشك  
في بعض الأحيان أنني بالفعل كاتبها ؟

أريح جسمي المهدود وفكري المكدود ، أضع رأسي على المخدة  
وأستغرق في نوم عميق ، وعند الصباح يحمد القوم السرى؟

تغيرت كل المفاهيم التي كنا نظنها حقيقية ، طبقيّة طغت ، وعنصرية  
تفشّت ، فاستسمنوا ذات ورم ونفخوا في غير ضرم ..سلسلة نكدة من  
التخاذل التربوي ، وأنانية هدت كل أس.

فبأصدق العبارات وأجلى الدلالات ، أتأسف من واقعنا اليوم ...

فمتى تنقمع هذه النفس الشريرة فتعود إلى قلبها فتطمئن له وتقمع به...؟

ربما بحثوا عن مشجب يعلقون عليه كسلهم وخور عزائمهم... ليس لهم

عندي حظ في النظر ولا في الاعتبار... فلا تحزن عليهم ولا تك في ضيق

مما يمكرون.

ترتعث يداي وهي ممسكة بقلم ظل في إحدى الرفوف من مكتبي الغنية،

يعيش في يأس بعد أن اقتنيت حاسوبي الجديد ، لقد كنت أحس بلغناته

كلما آلمتني عيناى من ضوء الشاشة الساطع المشع ، وكلما أخطأت في

التعابير أو خانتني الأفكار ، كنت أحس بلغنته تلك .

ترددت مرارا وتكرارا من أجل توليته الريادة وسلطان الكتابة ، فأبى إلا أن يكون رائدا من جديد ، لنتهال معه أصوات وأحاسيس ، ألهمتني حس الإبداع ، بعيدا عن دياجير الجهل والجمود ، لقد كنت فيما مضى أهجوه هجاء مقذعا ، بيد أن قناعاتي الداخلية أبت إلا أن يكون هو الأفضل ، استطعت من خلاله أن أخرج نفثات من السخائم التي استقرت في داخلي تنحت الحزن والكآبة ، وتزيد من نسبة الحسيكة في الدم .

لا بد لكل واحد من وساوس تزعجه ، وأواهاات تؤرقه ، وأحاديث تبكيه، يحس من خلالها بحلاوة الحياة ، ودجنة الليل التي ترسم عظمته وسره الكامن في اللوح المحفوظ ، خفافيش الظلام والبوم فوق الأشجار وعلى أعمدة الكهرباء تعيش متعته ...ولص يتربص الجوائز في الزقاق المظلم ...عالم خفي هو الظلام...أحداثه بلا شهود ...أسراره مقفلة بإحكام ...الغاز خلدتها التاريخ .

قال جبرونيت: عفوت عنك بشرط أن  
تموت / من مسرحية لموليار... مخادعات  
سكابان

## غرفة الأشباح

وفي ليل بهيم ، عمّ سكون شديد أرجاء البلدة ، رياح تُسمع أصواتها بين تلك الأزقة الموحشة الموحلة ، تُسمع سمفونية الكآبة ، هلع يعيد نفسه كل سنة وفصل الشتاء .

برد لاذع كالصقيع ، تمثل فيه معنى الشقاء ، وتجلت فيه معالم العذاب ، ولا أعدو الحقيقة إن قلت أن الكآبة لهي فنّ تفننت فيه الظروف والأقدار ، فقد كانت ثمة هناك جميع مظاهر الأبهة في يوم من الأيام ، قرب ذلك المنزل الخرب .

كنت أحدث نفسي حتى أخفف عن قلبي كوني عاينت المأساة ، فكيف  
بمن تاه في عالم الجنون بسبب تلك المأساة .

ضوء القمر قد غيرته صفرة الأجواء كأنه مريضٌ شاحب مسهد ؛ كانونٌ  
تتقد فيه نار من فروع الزيتون مضيئة تحدث كصيصا وطققة ، وسيول  
من الدمع تجري على وجنتي كأنما تتصب من جرة مقلوبة .

بأسماله المخرقة المرقعة أراد أن يشاركني كوب شاي لأول مرة ولآخر  
مرة ، وسمفونية بيتهوفن الكنيبة على مشارف أذني تُسمع بين القبور،  
قامته الفارعة المقوسة تقويسا خفيفا ، ولحيته الطويلة التي تفوح منها  
رائحة العفن ، والتي تحلي وجهه المُتسخ ، وبصوته الجمهوري القوي ،  
يبتسم في زهوٍ ساذج ، وقد دفع إليّ البراد كي أعد بعضا من الشاي  
ونستأنس بحديث النهاية على نعمات طقطقات المطر، وصفير الرياح  
العاصفة ... حديث قد يكون هو الأخير .

كنت جبانا رعيذا ووديعا بالطبع لا أستدرج إلى النزاع أحدا ولا أتكبر  
عن مثل هذه اللحظات .

نحيفٌ صاحب اللون ، مائلٌ قليلاً إلى الصّمت ، بأنفه الطويل وشفثيه  
الغليظتين ، يتكى على جدارٍ مترب يرفع بصره يراقبُ انقشاع السُّحب ،  
والنجوم يبرق نورها ، والقمر يضيئ أرجاء المعمور ، ويحدق بكل  
خشوع كي تسمو روحه إلى عالم السماء ، وقد أرخى الليل سدوله على  
الكون.

فلم يزعجني أثناء مجالسته سوى لمبته المدخنة الكريهة الرائحة .  
يتلوى كالثعبان بين الحين والآخر يشكو ألماً في بطنه قد لازمه منذ سنين  
طويلة ، ويشتدّ كل شهر واكتمال القمر.

قد يكون كل ما ننجزه هو مرآة لذواتنا ، وقد أكون من تواضعي له أي  
قد أنجزت ما هو حقاً يستحقّ أن أكون من يُنجزه دائماً ، فالقبر قد يكون  
في غالب الأحيان هو المرفأ الوحيد على سطح الأرض بعيداً عن أذية  
البشر .

قد يثوب إليّ رشدي بعد هذا الجمع ، وقد أهيمُ في خبلي إلى الأبد .

أنقعت الحية السم في أنيابها ، فلم تجد سوى عمر كي تضرب ضربتها  
التي أوجعت الكثير ، فحين تدجى الليل وأومض البرق ، أحسستُ  
بقشعريرة غريبة ، فبدأت أجري كالمجنون ، والمطر ينزل والأزقة وحلة  
والمآزب تبقيق ، وجداول صغيرة من المياه القذرة تلتفت حول الغرفة ،  
أتحري مكانا أختبئ فيه ، وكلي وجلّ من أن أصبح رجلا مقرورا .

عاش في فلك المرض ، وعلى أمواج الوهن ، وقد اخترم المرض جسده  
الهزيل ، وسلب نور وجهه الشبابي ، انتعل أديم الأرض ، وانزوى في  
بيت الهموم والأحزان ، كاسف البال ، سيئ الحال ، فدمّ عصرته طاحونة  
الزمان ، واخضلّ بماء المطر يقضض بجانبى على سكون المقهور ،  
ودهشة المظلوم ، يجرّ رجليه يريد قضاء حاجته وقد كدّه الهمّ والضير،  
وقد بلغ منه الشقاء مبلغاً .

اختبأت وأخيرا بغرفته الملاصقة للضريح ، التي عهد فيها مؤاكلة الجرو  
والهرة ، أحتمي من وابل المطر الشديد ، فقد ضؤل جسمه واضمحل  
رسمه ومُحيت ملامحه البراقة مذ آخر يوم رأيتَه فيه .

رطوبة الجوّ وبرودته ، أدخلت عليّ الإعياء ، وأوهمتني المرض ، فدلفت  
لداخل الغرفة أتحسس مكانا لأضطجع فيه ، فقد أخذ الكرى بمعاقد أجفاني  
، أنتظر غفوة كي أنتعم بنومة هائئ وانقطاع المطر ، ولكن وجود مديّة  
بالغرفة حال بيني و بين ذلك ...

لم يكن عمر بالغريب عليّ ولا بالخطير ، لم يعد أي شيء يقلقني أو  
يريبني تجاهه ، بعد أن عرفت المأساة والخطب الجلل ، ولكن هي الفطرة  
المجبوّلة في النفس البشرية ...الخوف...

كان الناس يثقون به ، بينما ودّ هو لو وثق بأحد ، لإكرامه ومواساته  
خير شيء قد يُحبّذه الآن ، وخاصّة في هذه اللحظات الأخيرة ، فتلك  
المودة وذلك الاهتمام ليصنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة .  
انكفأ إلى داخل حجرته يبحث عن علبة قد وضع فيها سكرا وبعض  
حبوب الشاي، وأنا أراقبه عن كثب .

ينسلّ تحت جناح الليل لللبساتين بالجوار ، يتلصص بها ، يبتغي كل ما  
 أمكن أكله والاستفادة منه ...الكلّ يعرف ، والكل يعفو ويغفر ، فقد يكون  
 ردّا لكرم أبويه من قبل ، فيتغافل الكلّ بالإجماع.

تلازمه مديّة حادّة ، كان يحملها لرد الغوائل من مكر البشر والحيوان ،  
 وبأس الوحوش التي تزعجه في المنام ...!!

أسايره أفكاره وهواجسه ، أكتفي بنعم ...إييه ...مزيان ...

أوقرّ عليه غضاضة ذلك الموقف ، أقابله بطلاقة وجهٍ كانت تستر تحتها  
 همومي التي لا تعد ولا تحصى ، لن أريم عن مكاني هذا حتى يهدأ المطرُ.  
 أراه منكبًا على مطالعة بعض الجرائد القديمة ، يتمتم كأنه يقرأ ، ويقف  
 بضع ثوان يوهمني أنه يُفكّر ويحلل ، يبدي دهشة مفادها أنه فهم الخبر،  
 وقسمات على وجهه من فرط التعجب والدهش ، وأنا أراقبه وقد ألفت  
 سلوكه الهجين .

بلد استفحل فيه الفساد وبزل ، وتمكن فيه الجهل وقرح ، فقوي داؤه  
وامتنع دواؤه ، جهل يعيش في القلب ثم يبيض ثم يفرخ ، وندفع ثمنه  
بتحمل عمر وأشباه عمر .

إن للرجال حجما ولالأحداث مقادير ، فقد تغيرت القيم ، كما تغيرت أسس  
التقييم ، فقد يكون العقل منارة يعاش بها ، ونعمة تُضفي الهيبة  
والمهابة، وقد يكون المال هو الأساس في التقييم الجديد.

فقد اتخذت العبوسة مسكنا لها بين عينيهِ ، فصار ينظر إلى العالم بعين  
النفور والبغضاء ، فشقاوة العيش ، وسوء المعيشة ، وقلة اليد ، جعل  
عيشه بين النقشف والعزلة عن الناس ، كأنه لم يخلق لغير التعب  
والشقاء ، تلقى دروسا في فنّ العناء ، فظل مقراض اليأس يأكل خيوط  
آماله ، وكلكل الموت على الرصيف ...إملاق ما بعده إملاق .

ويصدق فيه قول الشاعر :

إن الدراهم في المواطن كلّها

تكسو الرجال مهابة وجمالا

فهي اللسان لمن أراد فصاحة

وهي السلاح لمن أراد قتالا

كان في زمن ليس بالبعيد ، إنسانا وقورا ، صبورا ، كثير التفكير ، خاشع القلب ، عالي النفس ، مهيبا في العين وقد غدرته جارتته ، وطمست معالم ذلك كله بحضرة ساحر متمرد ، فصار كأنه وثب من نورٍ إلى ظلمة، وقد وقع في كمين شلّ الحركة وأذهب العقل ، كلنا ننتظر متى يأبل من مرضه ، كان أسدا تهاب جنابه الضباع... أف لهذه الدنيا يُحبّها من يخاف عليها ، ومتى خاف عليها خاف منها ، فهو يشقى بها ويشقى لها ، فمثل هذا لا يكاد يطالع وحادثة من حوادث الدهر، إلا خيل إليه أنّ التعاسة قد تركت الناس جميعا وأقبلت عليه وحده فقد قيل : الوفاء من شيم الكرام والغدر من شيم الزمان ، فهكذا هي الدنيا ، أمنيات تتحقق وأمنيات تخيب.

ربتّ على كتفيه أهمس في أذنه :

لا تقلق يا عمر ، ولا تيأس إذا تعثرت أقدامك ، وسقطت في حفرة ،

فستخرج منها وأنت أكثر تماسكا من ذي قبل ، والله مع الصابرين .

يحني رأسه يقبل يديّ ، ولا يجيب بشيء ، وأنا متأكد من أنه فهم ولا

يستطيع الرد ، فقد كان في بعض الأحيان يعقدّ على لسانه .

لا تأسفنّ على غدر الزمان لطالما

رقصت على جثث الأسود كلاب

لا تحسبنّ برقصها تغلو على أسيادها

تبقى الأسود أسودا والكلاب كلاب

فضيلة الجارة الحقود ، والشر الموعود للأسرة المتواضعة الفقيرة ، فما لي لا أقول ولي لسان ، وقد نطق الزمان بلا لسان ...الأقارب عقارب .

لقد تنكر له كل شيء بعد المرض ...

أين الخلان ...!!

وأين الصّحب الميامين ...!!

كلّ قد انسل كما تنسل الشعرة من العجين ، فكان وقعها على عمر كما ينسلّ الصّوف من الشوك الكثيف ، كيف وقد ابتسم لهم ذات يوم ، وواساهم في كلّ حين ، وأجلّهم في المجامع ، وأكرمهم في المجالس ...نعم ...هي الحياة تسقي مرارتها لعمر المسكين .

أصبح لا يبالي بشيء ، ولا يعبأ بوخز القرّ ولا بسقوط الجليد ، كأنه يقدم على الانتحار في كل يوم وتذكر تلك اللحظات .

أصبح مدمنا للخمرة ، يصنعها بنفسه ، يبيع ما في فواده من مكنونات التعاسة ، ومن رواسب الكآبة ، فزاد ذلك من استحاله اندمال الجرح ،

يتعثر في ذيول الحسرة والحيرة ، ثجانبه الخيبة في كلّ مسعى له  
 ومبتغى، فقد انقلبت به الأحوال إلى المشقة والمترية ، تعلمت منه دروسا  
 في التقشف وفي فن التعامل مع غوائل الضيق والخلة ، شظف عيش  
 مرير في غرفة أشباح ، نكد عيش يعيشه عمر ، يتمرغ في أوحال المطر،  
 وقد اشتد به الألم ، صياح مروع ، وحركات تفرع ، اكتفيت بالمشاهدة ،  
 والدهشة عنوان وسلطان آنذاك ، ففي هذه الضائقة التي لا تحتمل  
 والخارجة عن طاقة البشر ، لثُهيج السخط والشرر في قلوب المعذبين  
 من أمثال عمر .

لقد نزل بأمثاله الدهر إلى أسفل سافلين ، إلى الحضيض بأبلغ تعبير ،  
 أرى فيه مظاهر العوز والاحتياج والجنون ، فقد أرخت عليه ظلمة الفقر  
 غشاء يحجبه عن كلّ ذي ضمير ، قرف وونتانة تنسي المرء حبّ  
 الإحسان، وتجدد في نفسه روح الابتعاد والغياب عن مشهد التشاؤم  
 والألم .

امتزجت بتلك الحياة البائسة والخرق الدائم والهموم التي لا تنتهي ،  
مضاضة الحياة .

فضيلة الشريرة من نوع نادر لا يجد الراحة والسرور إلا في ألم غيره ،  
فتلك النفوس كأنها فطرت على حب الكيد والإيذاء والشر والحرب .

فقد صبري قبل صبر عمر ، وددت لو قتلتها بيدي هاتين ، وددت لو  
شربت دماغها إلى حد الثمالة ، تمنيت قتلها شر قتلة ...فليكن ...

اشتدت به الفاقة إلى حد يعزب معه الصبر ، فجميل أن تكون نواياك  
بيضاء حتى وإن ألبسوك سواد ظنونهم .

فالأيام تأكل كل شيء يا فضيلة ...كل شيء ...الطفولة ...العمر ...الصحة  
...وكل التفاصيل ...ما أسر منها وما أعلن ...تغيب الطرقات ...ينسأك

الرفاق ...وأحيانا ...المبادئ والقيم ...نعم يا من يتبعها الشياطين  
...المبادئ والقيم ...فلهذا لم تعد الثوابت ثوابت ...انقلبت الموازين ،

فلقد كنت سببا في الدمار ، وعبئا على أهل الدار بالجوار ...أم ماتت من  
شدة الصدمة ، وأب عانى ويل القهر والظلمة .

يا فضيلة :

ألم تُحسي بالخواء... !!

ألم تحسي بالضجر ومرارة الحنظل... !!

ألم تسعي يوما للتوبة وطلب الغفران... !!

ها هو أمامي الآن ، يأكل ويشرب كأنما قسرا ...

أهو الحب...؟

أم انتقام... !!

أم حسد... !!

أم حرب قديمة صقيت حسابها بالكيد من عمر... !!

كان أكثر حُمقا وسذاجة ، يجرّ رجليه بوهن شديد مع الغمغمة طوال

الوقت ، نظرات من الذل والاستكانة تعتريه ، وألم لأصحاب الضمير

يسوقهم إلى الوهن والتشاؤم والشك في المصير .

إنه الألم الذي ينبع من الضياع والندم الذي يخرج من فوهة ضياع  
الفرص وعدم الإحساس بالنعم ، إلا بعد فوات الأوان .

فتلك الريح الشديدة الباردة ، التي تضرب وجهه مباشرة ، وندف الثلج  
التي تكسو معطفه البالي ، ترغمه على ألا يستقرّ بمكان معيّن منتقلا بين  
غرف منزله الكبير الخرب ، بعد أن كان يضحّ بالحياة قبل أن تُتسّف  
بحضرة ساحر كافر ...وقد فضّل الغرفة بجانب الضريح .

انصرم الخريف ، وانطوى على أثره الشتاء ، سماءً مكفّهرة الأرجاء ،  
وأفقّ مظلم ، وما زال البؤس يجتر حياة عمر ، لقد خرج به الانحدار  
والانحطاط عن حد الوعي والإدراك ، ضحك ضحكةً بلهاء ، وقد شحب  
لونه وهو ساه ، و أردف يقول :

عبد الجليل ، أخي وابن أُمّي ، ناولني الشمعدان فقد غربت الشمس  
...انتظر ...لقد فنيت الشمعة الأخيرة ...نسيت .

قلت :

أنت بخير يا عمر ، أراك قد تحسّنت !!...

أجاب وعيناه شاخصتان بخشوع ، كأنه يترقب شيئاً ما :

ولكنّه إبلالٌ يعقبه الموت .

أجبت مقهقها:

كلنا سنموت و سنثوى تحت التراب .

لقد صبرَ وصبرنا حتى ملأنا الصبر ، وهو يصيح من الألم ، يمشي

ويطوف بالضريح ، بين الذلة والانكسار ، وأنا بين الألم الداخلي والذهول

الخارجي .

أخاطبه بصوت تغيرت نبرته ، قد خنقه صوت البكاء ، وصدري بدأ

يضيق ، والأنفاس تنقطع بالشهيق :

لقد اخترمت سياج الشريعة يا عمر ، وخنث عهدك بالحق ، ولا أرى أن

المقبور سينفكك بشيء ، بل ستنزل بذلك إلى درك الشقاء ، فإما عفوا

بعد وإمّا جزاءً .

تجاهلني وصار يطوف ويطوف ، ورجلاه تغمسان في برك من الأوحال  
...من غير اكتراث يتمسح بجدران القبّة البيضاء كالشّبح .

وقائلة أنفقت في الكتب ما

حوت

يمينك من مال فقلت وعيني

لعلني أرى فيها كتابا يدلني

لأخذ كتابي آمننا بيمينني

## بحضرة ساحر

سخف وحماسة تنجلي ... عين خسيصة وخدع تنظلي ... همج رعاع .  
 على أسوار تكاد تهوي في مستنقع من الوحل أو في صحراء ذات رمال  
 متحركة .

...نظر قصير وبصيرة عمياء ، كثرت الفقاعات تطير في السماء تتلاعب  
 بها الرياح ... جهل تبنى تربية الأجيال ...وعلم ونور قد صعد بأغلال  
 الإهمال...تتراوح حيواتهم من ...إلى ....فتنتهي الحياة يومئذ؟؟  
 ...فما دوري وما شأني ...

بابتسامة رقيقة ..

دماء تسري ... وهم يكوي ...

...قسماته العميقة

فلذة كبدي ...مكتتب في ليلى .

قالت ساهمة

مجدي ..عقلي ..روحي ..

قضايا لا حل لها ...شؤون عويصة في ريعانها ...كلمات ملغومة وسم  
زعاف.

...كالماء العذب سائغ شربه ...وسيف ذو حدين ...كثيرة هي تلك  
العبارات ، لا صوت لها ولا لون ...حروف منسجمة متلاصقة لا معنى  
لها ...حين يفقد الضمير، وتقبر الأخلاق ...حينئذ يتكبر الانسان ...مال  
وبنون ...حياة ملؤها كبر وعجب وطبقية .

لا تحتاج في الجهل سوى ترك التعلم ، وستجد نفسك كذلك ... جاهلا  
يؤمن بطقوس غريبة، وينذر لحجارة متسخة ، ويتبرك بحبل كريه  
الرائحة ، يدعو مقبورا ، ويختلي بمشعوذ ، يكتب طلاسمه ، ويتقن  
تعليماته ، فيحقق مراد السائل على حساب كفر صريح ، ونذر قبيح ،  
طارحا رداء الخجل ، كاشفا لأسرار ملئها كذبٌ وغوائل .

هي قرية صغيرة على مساحة من الأرض يكسوها غطاء كثيف من  
العشب الأخضر القصير ، وبعض أشجار الزيتون على ضفاف وادياها  
العميق ، والسواقي في كل مكان توزع الماء وفق نظام التناوب بين  
سكان القرية ، والماء بين الأشجار يُسمع خريره بنسق منتظم  
عجيب... حياة بسيطة بين أهلها كسائر الحيوانات القروية ، بساطتهم  
وودهم ووقارهم أمر حميد ، تلك الأخلاق بينهم كالبنيان المرصوص ،  
منازلهم متراسة متقاربة الأسطح متباينة... شجر كثيف ملتف يزين  
الطرق المؤدية للحقول ، طرق ضيقة صغيرة متشعبة ... ظموحات  
بسيطة وعيش كريم ؟

كتاب قرآني تتعالى منه أصوات الصبية يحفظون القرآن ، غلمان صلّع  
 بجلابيب رثة شفافة تظهر تلك الأعضاء الصغيرة مباشرة وتدفق أشعة  
 الشمس البنفسجية بين تلك الخيوط المنسوجة بأنامل الأمهات ،  
 فتفتن أيادي النساء في غزل الصوف إلى أن يصبح خيطا رقيقا يكاد لا  
 يرى بالعين إلا إذا لامسته الأيدي، وبعد أن يجمعه في كُعب مختلفة  
 الألوان، يقمن ببناء لوحة للحرير على منسج ويرتبن عليها الخيوط  
 سطرا سطرا، مستعملات في ذلك، “النيرة” للتصنيف و”النشابة”  
 لتوزيع الخيط ذي اللون المختلف بشكل متساوٍ قبل تثبيته بالمشط  
 الحديدي حتى يأخذ مكانه إلى جانب الخيوط الأخرى.  
 وتلك السيقان الهزيلة والأرجل الحافية المتورمة من وخز الشوك  
 وقسوة الحجر و برودة التربة ، يعيش الأطفال معنى الطفولة القروية  
 ..فتلك الصومعة المستأسدة على أسطح الجيران تحكي شموخها  
 للأولين والآخرين ..فعلى معالم المحضرة ..كُتب التاريخ الأول .

الدا باكريم رجل ثمانيني يجلس على جلمود بقرب باب المسجد مقرفا

كل يوم... خجولا إلى حد يقارب سوء الأدب... يتجارى الصبية من

زقاق المسجد بعد أن قبلوا رأس السي المختار ووضعوا ألواحهم

وأسندوها إلى حائط المسجد المُترب تزامنا ووقت الظهيرة ، وكلهم فرح

وسرور... حرية لم يُعرف طعمها لدى الكثير من صنّاع السعادة... فحب

باكريم للأولاد ، والصراع الذي عاشه في أيام صباه وقد حرم التعلم

والعلم وضاع عنفوان شبابه بين الرعي وطلب قوت العيش ، جعله

يعتكف بالمسجد مكتفيا بالسمع طالبا المغفرة مُحبا لرواد العلم هناك ...

فبين أزقة القرية يتجارون وقد التهم الجوع أحشاءهم ، وكلهم فرح

ونشاط ، تعليلهم أسارير الحرية والنصر ... كأنهم للتو خرجوا من

سجن... متعة بلا حدود .

باكريم العجوز ... عواطفه في أعماق قلبه كما لو كانت ضعفا ... يظل

مقرفا بقرب باب المحاضرة ، كعادته بتأدب : أصلحكم الله يا أبنائي

... اجتهدوا ما دامت الفرصة سائحة لكم ... اجتهدوا...؛

عمر وهو راجع من الحقل لاستراحة الظهيرة وتناول وجبة الغذاء  
 ..وأثناء رجوعه دائما ما يمر بقرب المسجد وإلقاء التحية على الدا  
 بكريم...توقف فجأة واستطرد بلهجة رشيقة تنم عن سلم وسلام ودعوة  
 للحب والوئام ودفع لغوائل الحقد ولمكر الناس اللئام :

الدا باكريم ...كيف حالك اليوم وبرودة الطقس !!

أجاب بلهجة مكتئبة باردة:

الحمد لله سيدي عمر ، كل شيء على ألف خير ...

مرّ إلى الحقل ذات يوم كي تغير نمط عيشك هذا ، وطلق تلك الحجرة  
 التي هدت جسمك بالبرودة .

إن شاء الله يا صديقي عمر ...سأفعل ...رافقتك السلامة .

وأنت كذلك؟

عمر رجل بسيط يعمل في حقله الصغير...حديث عهد بالزواج ، في بيت  
 طيني يعيشون جميعا حياة هادئة لم تتخللها بعد سهام الغدر والعداوة .  
 دائما ما تحرص أمه على أن يجد غذاءه في الوقت المناسب ، وهذا ما  
 حاولت الأم جاهدة ترسيخه في سلوكيات زوجته الجميلة رقية.

فطوم وعلى شفيتها ابتسامة أنيقة : هل أعددت شيئا ؟

رقية وقد تهللت أساريرها وارتسمت على أطراف شفيتها خطوط الرغبة  
 والحب : أنا قادمة خالتي فطوم.

ضعي ذلك الطاجين كي يبرد ، فهذا أوان إياب عمر ؟

رقية بخطاها الحبية ولباسها المحتشم تمشي باتزان وتؤدة تلبى أوامر  
 الأمة بقلب راض وهمة عالية .

حاضر...حالا .

نلت رضاي يا ابنتي ...فهذه صفات الزوجات المجدات ..

رقية :لا خيب الله رجاءنا.

فطوم تجيب بلهجة ملؤها الحزن والكآبة والرجاء معا :

أمين .

فطوم : رزقكما الله نسلا صالحا ، فأنا بحاجة لمن يناديني جدتي فطوم.

رقية وقد استغرقت في التفكير: أطل الله في عمرك خالتي فطوم.

فطوم : وأطل في عمر زوجك عمر ، فمكافته في قلبي كبيرة جدا ...هو

بؤبؤ عياني ؟

ولذلك اخترت له أفضل بنات القرية ؟

جمالا وحياءً ...وحرصا على الشرف ، واخترتك من أسرة بسيطة ، آه

كدت أنسى ...هل زرت والدتك اليوم ؟

كيف حالها ؟

رقية وقد تغيرت ملامحها تنبئ بحزن مرير: إنها تحتاج لعفو الله ، فكلما

تحسنت صحتها يوما إلا واشتد بها المرض أسبوعا إضافيا ، لم تتناول

إلا القليل من الحساء الذي أعدته لها ...شربته بصعوبة ومشقة ..

فطوم بتأسف : الشفاء لا يأتي إلا من الله الواحد القهار أما الأمراض

في مرحلة الشيخوخة...فصعبة التجاوز؟

عمر بجلبابه البرتقالي ، الذي يمتد حتى أنصاف الساقين ، غطاء رأس  
مشدود إلى الأمام ، وعمامة خضراء داكنة ، بلغة بنية من الجلد  
تصميمها بسيط مقدمتها محدودة كسائر نعال الأمازيغ ، سروال  
فضفاض أسود قد تمرغ بالتراب ...فاضل يتمشى بكل ثقة في النفس  
باسم الثغر منشرح الصدر مرتاح الضمير ، على كتفه معول وبيده اليمنى  
قفة بها شيء من الخضار التي جناها من البستان ...بصل وبعض الجزر  
ونعناع لكوب شاي ...أسطح زينت بتلك الحجارة المشعة ...زادت الأزقة  
بهاءً وضياء ...ماعز في كل مكان يستعرض مهارته في تسلق شجر  
الأركان ...

موحا جار فاضل المنافق ، بوجهه ذي القسمات الخداعة الذي يبدو  
مشرقاً ؟

يظهر عكس ما يضر، لا يفصل بين منزليهما سوى حائط قصير ،  
 اعتادت زوجة حمو فضيلة ، الفارعة القد الجافة العود ... الاعتكاف بقربه  
 وتسلق السلم الخشبي واستقاء آخر مستجد من منزل الجيران ، وتأجيج  
 عواطفها الجياشة التي تطلق العنان لحقد الميرير.

...بل و كل النقاشات كانت تسمع بشكل واضح ... لقد شاخت عداوة  
 قديمة بين العائلتين منذ القدم ، وورثتها فضيلة التي تحاول بكل ما أوتيت  
 من قوة أن توقع العداوة بين رقية وزوجها .... كما يقول دائما جدي:

أتدري يا ابني كم حجم الشيطان ؟

أجيب متعجبا ساخرا متشوقا لتلك المعلومة التي بالفعل ستضحكني  
 لطبيعة جدي الفكاهية :

الله أعلم.

يقول جدي بكل ثقة وهزل : بحجم المرأة تقريبا أو المرأة نفسها  
 ....فتنفجر ضحكات الحاضرين تنتشر في أرجاء البيت وعيون الخالات  
 في تبرم واستحياء .

موحا بكندورته السوداء قد لف منزره على بطنه ، وصوان من جلد قد  
 شد بخيط أحمر سميك يحمله على كتفه ، وعمامة سوداء كالليل ...  
 يصبح موحا بكل قوة عمر يا عمر :

...على سلامتكم؟

عمر : وقاك الله كل شر السي موحا .

موحا : امتد بك شغل الحقول إلى هذه الساعة ؟

عمر : نعم ...فالحياة الزوجية صعبة ...أليس كذلك ...كنت في الماضي

لا أستيقظ حتى وقت الضحى أما الآن كما سبق أن قلت لي ...إعداد

اليمامة لعشها يلزمها الاستيقاظ باكرا ؟

موحا : تلك فقط بدايات الحروب ؟

تلتها ضحكات من كلا الطرفين أقرب إلى التهكم ... بلهجة باردة متبرمة

يا عمر : إن اجتهدت خارج البيت ، وأديت جميع المهام اللازمة ، فبدون

التحكم في داخل البيت ، ستعرض للجوع ، فمفتاح الربح والخسارة في

يد المرأة يا عمر .....

تفرقا إلى حين ...؟

البطن الجائع والبطن الممتلئ لا يتحاوران ... آخر كلام لفاضل مع موحا

متجها إلى بيته لتناول وجبة الغذاء .

دفع الباب الخشبي الضخم مسلما بصوت عال ... ووجه زوجته يتلألأ

بعد ما زينته لاستقباله ، ورأسها الملطخ بالطيب والدهن تفوح رائحته

في أرجاء البيت .

حياة بسيطة في حلة قشبية تزامنا مع فرح عمر بمولوده الجديد ،

رقية الزوجة الكادحة التي لبت أمنية فطوم التي فارقت الحياة

بعد أيام معدودات ...؟

فرحة امتزجت بالحزن ... فلم تدم فرحة المولود ولم يعيش عمر

اللحظات التي كان ينتظرها بأن يكبر الابن بين يديه وبين أحضان جدته.

فضيلة التي تحترق كل يوم بحقدتها على جارتها رقية ... لم تجد

سوى أن تنهي تلك الحياة السعيدة لعمر.

رزقت رقية بالمولود الذي طال انتظاره بعد أربع سنوات من المحاولات

والتداوي بشتى العقاقير والأعشاب ... شغف الأم وخوف رقية من طلاق

مؤرق لأمها المريضة ولها أيضا في وسط لطالما همش المطلقات

وصنفهن من الفاشلات جالبات النحس ...

شظف العيش ..؟

سجدت للا فطوم شاكرة المولى على تلك البشرى وذلك الحلم الذي

تحقق ، عمر المسكين لم يسعه سوى أن يعلن تلك البشرى وسط

المسجد بعد صلاة العشاء لتتلقفها مسامع جاره موحا الذي تمنى

أن تنشق الأرض ويثوى فيها الى الأبد ...

هل من الغضاضة أن يرزق الرجل بابن؟؟

هل صحيح ما يقال أن لكل نعمة حسود؟؟

فرح الناس لهذا الخبر الذي سيجر من ورائه وليمة لأهل القرية ...

فضيلة المسكينة لم تستطع إخفاء حزنها الشديد وقد جلست في حوش

لها بالبیت وكلها حزن وقد انفطر قلبها وكادت تتطاير منه الشظايا

لهول البشرى !

إنه الحسد والبغض ... لم تستطع فضيلة الإنجاب بعد تسع

سنوات من الزواج ... أمر الله لا مفر منه .... ويجعل من يشاء عقيما .

موحا الخداع زُج به كذلك في مصاف الجحافل للانتقام وتكيد الجيران ،  
 الشيطان جعل من فضيلة مطية لذلك ... امرأة يتبعها أربعون شيطانا .

لصاحب الكرامات ... للمشعوذ مشتت الشمل مفرق الأسر  
 والجماعات... شدت فضيلة زيارتها لذلك الضريح .. لا تبحث عن  
 العلاج... تعلم علم اليقين أن الأمر بيد الله ... بل ستحضر وصفا للانتقام  
 وتشريد كل من بالدار ... إنه الحسد ... وكم أعمى ... وكم أبكى ...

سحر الكابالا أو ما يصطلحون عليه ... عفريت من الشياطين من بين  
 سبعة شياطين .. سيقوم بالمهمة ... وفق شروطه المخرجة من الملة ...  
 مبلغ مهم من المال ... وشيء من ملابس الضحية أو بالأحرى ملابس  
 الضحايا ...

لقد كان أمرا سهلا ... استغلت وقت نشر اللا فطوم للغسيل على سدره  
 بقرب البيت فأخذت تباننا لرقية وقميصا لفاضل وبعضا من لباس الرضيع

ويا ليتها لم تفعل ...؟

أوقفها السي الطاهر ذو القسمات الخداعة والوجه القبيح ، عند باب داره  
مؤكدًا أنّ كلّ شيء لم يعد كما كان .

لقد تبت أيتها السيدة ، لا تعودي بعد الآن ، لن أكتب شيئًا ولن أعزم  
على شيء .

دفعته فضيلة إلى قاع داره وقد عرّت عن صدرها المكتنز ، ورمته بصرة  
من حليّ ، لذة ساعة كفيّلة بتغيير توبته ، وإرجاعه لكفره .

في غرفة مظلمة ، أوقد كانونا وقد رمى به بعض البخور الكريهة .

قال الطاهر بلهجة ملئها الجد :

سأكتب لك شيئًا وأعطيك بعض البخور ، واحرصي على أن تستعمل  
الوصفة في ليلة عاشوراء ، لم يتبق سوى أسبوعين .

هذه سبعة عقاقير للبخور لا للأكل فانتبهي لها : الفاسوخ الأسود ،  
والحرمل ، وحب الرشاد ، واللويان ، والكسير ، والسانوج ، والشب  
اليمني .. الشب الأحمر وليس الأبيض .

ثلاثة أيام... ثلاثة أيام... وانظري إلى النتيجة... شاي الله أسيدي

شمهروش؟

أو خمسة أيام إلى سبعة أيام كحد أقصى .

انصرفت فضيلة وهي تهول مسرعة ، وقد انتقبت كي لا يعرفها أحد

من معارفها .

قال معن بن زائدة:

إذا لم تكتب اليد فهي رجلٌ

## أخي المجنون

هالني عسر الموقف وبدأت أعصابي تنفلت ، كل وهمه ، وهناك من لا هم له ، فالحياة رحي ... يفرق الأدوار.. فمن انتهى من طحينه ، فليفسح المجال للآخر ، قالت تهمس في أذنيه ، ناا ابنة الدنيا ... أعيش في الدنيا ... أهيم على وجهي .... ثقلت حركته وأخذ يجبر رجله جرا... رعب حقيقي... مخلوق شرير بطبيعته فاسد بسليقته ، والغريب أنها ليست كما صورتها الحكايات ، جميلة تأسر العقول وتعري الرجال ؟

... شر مستطير و عيون ، وقبح لم ير له مثيلا أبدا...

يقول : بدأت في قراءة القرآن وشفاهي تتمم في هلع ، وقطرات من البول أحس بدفنها على فخذي الأيسر... ولا أوجست خيفة ... بل أقبلت علي مرهفة .... ما هذه المصيبة ؟

لعلي لم أقرأ بخشوع ... لكان حجابا لي من شرها ؟

فلتموتي أنت أولاً؟

عمر رجل حصيف ، يصعب النيل منه بسهولة، تناول منجلا بيده اليسر  
يستعد للضرب ، وهو يكبر...الله أكبر...الله أكبر...اختفت ذات الحوافر  
...لم يعد لها أثر ..

يلتف من حوله...ويلتف...تارة من اليمين ، وتارة من اليسار...صار  
يشير بالضرب على السراب...دقات قلبه تتسارع ورجلاه لم تعودا  
تقويان على الصمود...أخذ يجري اتجاه الغرفة وكله خوف وذعر وهو  
يلهث ويقول :

بسم الله الرحمن الرحيم...بسم الله الرحمن الرحيم....؟

فالمراة ذات الرداء الأبيض لها حكاياتها الخاصة .

يكثر الحديث في كل مجمع لأهل القرية عن بغلة القبور، تتواصل  
الحكايات وتتواتر من جيل لآخر ، على مسمع من أطفال القرية ،

تتراعى للناس بشكل مفاجئ وسريع ، تقف في زوايا الطريق ، لتعود  
وتختفي من دون سابق إنذار ، يتحاشى الناس كثيرا ذكرها مخافة  
مصادفتها ذات يوم ، كثرت تلك القصص من أناس كثر ، بل وقد سمعناه  
ممن رآها بعينه المجردة .

قد يكون طيفا ؟

أو قد تكون هي بكل تأكيد ؟

جو المقبرة في جوف الليل كفيل ببث الرعب في النفوس ، خاصة وأن  
شكل القبور في الليل ليس كشكلها في وضح النهار ، فهي باردة توحى  
بوحشة مخيفة يعيشها سكان القبور.

تظهر بين القبور في الليالي الحالكة ، ومنهم من يلمحها واقفة على  
القبور أو تحت الأشجار التي لا ترى أوراقها ولا يسمع حفيف  
أغصانها...

هو جو المقبرة المهيب الذي طغى على النبات والحيوان...

هكذا حكايات عمر وهو اجسه وأوهامه ... كانت تطارده كل ليلة ، بل  
تعذبه كل ليلة ... هكذا نقلتها من لسانه لك ...

من هي يا ترى !!

قال لي في آخر لقاءٍ لنا :

كنا ذات يوم أسرة سعيدة ... يقول بحرقة :

ألا تستحق فضيلة أن أنبش قبرها ...؟

ألا تستحق فضيلة أن تخلد في نار جهنم؟

ألا يستحق موحا أن أدنس كرامته؟

أنا مشتاق لرؤيتهم يا عبد الجليل...

قلت : من يا عمر !!

والدي ... أحمد و فطوم ... وابني الصّغير ... أما رقيّة فقد حطّمت فؤادي  
ونقضت العهد ... فلا أراني الله وجهها .... خائنة .... تفو ... تفو ...

فبكى كطفل صغير وبكى بدوري معه .... وقلبي يحترق بقوة وصوت  
الآذان تزامن وغمرة رقدته الأخيرة ، فانطفأ في هدوء وقد ضاعت معه  
حياة ملئها السعادة .... أنهى المسامرة إلى يوم القيامة ... يوم هم بارزون  
.... لا ظلم اليوم ...

هجرته رقيّة من دون أن تُبالي بشيء !!!

ومن سيبالي بك إن جنت ... ألم أقل لكم في سالف كتاباتي أنّ الكل  
يبحث عن الكمال و عن الجمال ... هجرته بعد أن جنّ ... بعد أن بدأ  
يخرّف ... امرأة جميلة ، قد يتمناها أي إنسان ، فلماذا إذن تفني شبابها  
من أجل أخرق مجنون .... ولكن أقول بلسان الكاتب ... وكلّ ساقٍ  
سيسقى بما سقى ...

أنت الآن يا فاضل قد عرفت قصّة والدك المسكين ... فلا تحزن ... لقد  
كان رجلا تهاب جنابه الضباع ... فلا تنسه من دعائك ...

فاضل وقد أغرورقت عيناه من الحزن : إن شاء الله يا عمي عبد

الجليل...سأفعل ...

قُم يا فاضل فقد حان موعد صلاة المغرب ...هذا قبر والدك فتذكر مكانه

ولا تغب عنه ...

فاضل : هيا نتسابق ....هيا يا أفضل عم ...

وتستمر الحياة....

## خاتمة

إن ترابط الأسرة وتماسكها الاجتماعي ميزة جلية من مزايا شريعتنا الغراء ، وخصيصة عظيمة من خصائص مجتمعنا المسلم ، الذي جعل من التواصل لحمته ، ومن التكافل سداه... وإن ضمان أمن المجتمع وتحقيق استقراره وبناء أمجاده وديمومة سعادته ، تكمن في عقيدته وإيمانه بربه وفق منظومة قيمية متألّفة بعيدة عن الضغائن والبغضاء، وإثارة الشحناء ، وغوائل الجفاء ، إلا أن بعض السلوكيات الدخيلة ساهمت في اختلال نظام أمتنا الاجتماعي في بعض جوانبه مما أثر سلبا على جوانب عديدة من المنظومة الأخلاقية الأصيلة ، ولعل من أخطر هذه السلوكيات ما يرتبط بالجانب الاجتماعي ويوشك أن يعصف بالكيان الأسري ويهدد تماسك المجتمع ، إن التقلص الملحوظ في وظائف الأسرة ، والتهديد المستمر لكيانها ، وكثرة الجنوح من أفرادها...كل هذا يدق ناقوس الخطر ، وينذر بإشعال فتيل أزمة اجتماعية

خطيرة ، يجب المبادرة إلى إطفائها والقضاء عليها ، بإيلاء قضاياتنا الاجتماعية حقها من العناية والرعاية والاهتمام ، ويدعو لاستنفار كافة الجهود للحفاظ على هذا الكيان الأساسي في جسم المجتمع المسلم ، ألا وهو الأسرة.

انتهى بفضل وكرمه

في تارودانت / 10 جمادى الأولى 1441 هـ / الموافق ل 5 يناير

2020

## الفهرس

4	الإهداء
5	مقدمة
9	غرفة الأشباح
26	بحضرة ساحر
45	أخي المجنون
51	خاتمة